

## الكلمة الرابعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"الصلوة عماد الدين"<sup>(١)</sup>

إن كنت تريـد أن تعرـف أهمـيـة الصـلاـة وقيـمتـها، وكم هو يـسـير نـيـلـها وزـهـيد كـسـبـها، وأنـ من لا يـقـيمـها ولا يـؤـدي حـقـها أـبـله خـاسـر.. نـعـم، إنـ كـنـت تـريـد أنـ تـعرـف ذـلـك كـلـهـ بـيـقـينـ تـامـ - كـحـاـصـل ضـرـبـ الـاثـنـيـن فيـ اـثـنـيـن يـساـوـي أـربـعاـ - فـتـأـمـلـ فيـ هـذـهـ الـحـكاـيـةـ التـمـيـلـيـةـ القـصـيـرـةـ:

يـرسـلـ حـاـكـمـ عـظـيمـ ذـاتـ يـوـمـ اـثـنـيـنـ مـنـ خـدـمـهـ إـلـىـ مـزـرـعـتـهـ الـجمـيلـةـ، بـعـدـ أـنـ يـمـنـحـ كـلـاـ مـنـهـمـاـ أـربـعاـ وـعـشـرـينـ لـيـرـةـ ذـهـبـيـةـ، ليـتـمـكـنـاـ بـهـاـ مـنـ الـوصـولـ إـلـىـ الـمـزـرـعـةـ التـيـ هـيـ عـلـىـ بـعـدـ شـهـرـيـنـ. وـيـأـمـرـهـمـاـ: "أـنـفـقاـ مـنـ هـذـاـ مـبـلـغـ لـمـصـارـيفـ التـذاـكـرـ وـمـتـطـلـبـاتـ السـفـرـ، وـاقـتـنـيـاـ مـاـ يـلـزـمـكـمـاـ هـنـاكـ مـنـ لـواـزـمـ السـكـنـ وـالـإـقـامـةـ. هـنـاكـ مـحـطةـ لـلـمـسـافـرـيـنـ عـلـىـ بـعـدـ يـوـمـ وـاحـدـ، تـوـجـدـ فـيـهـاـ جـمـيـعـ أـنـوـاعـ وـسـائـطـ القـلـلـ مـنـ سـيـارـةـ وـطـائـرـةـ وـسـفـيـنـةـ وـقـطـارـ.. وـلـكـلـ ثـمـنـهـ".

يـخـرـجـ الخـادـمـانـ بـعـدـ تـسـلـمـهـمـاـ الـأـوـامـرـ. كـانـ أـحـدـهـمـاـ سـعـيـداـ مـحـظـوظـاـ، إـذـ صـرـفـ شـيـئـاـ يـسـيراـ مـاـ لـدـيـهـ لـحـينـ وـصـولـهـ الـمـحـطـةـ، صـرـفـهـ فـيـ تـجـارـيـةـ رـابـحةـ يـرـضـيـ بـهـاـ سـيـدـهـ، فـارـتفـعـ رـأـسـ مـالـهـ مـنـ الـواـحـدـ إـلـىـ الـأـلـفـ. أـمـاـ الـخـادـمـ الـآخـرـ، فـلـسـوـعـ حـظـهـ وـسـفـاهـتـهـ صـرـفـ ثـلـاثـاـ وـعـشـرـينـ مـاـ عـنـهـ مـنـ الـلـيـرـاتـ الـذـهـبـيـةـ فـيـ الـلـهـوـ وـالـقـمارـ، فـأـضـاعـهـاـ كـلـهـ إـلـىـ لـيـرـةـ وـاحـدـةـ مـنـهـاـ لـحـينـ بـلـوـغـهـ الـمـحـطـةـ.

خـاطـبـهـ صـاحـبـهـ: "يـاـ هـذـا.. اـشـتـرـ بـهـذـهـ الـلـيـرـةـ الـبـاقـيـةـ لـدـيـكـ تـذـكـرـةـ سـفـرـ، فـلـاـ تـضـيـعـهـاـ كـذـلـكـ، فـسـيـدـنـاـ كـرـيمـ رـحـيمـ، لـعـلـهـ يـشـمـلـكـ بـرـحـمـتـهـ وـيـنـالـكـ عـفـوـهـ عـمـاـ بـدـرـ مـنـكـ مـنـ تـقـصـيرـ، فـيـسـمـحـوـاـ

(١) الـبـيـهـقـيـ، شـعـبـ الـإـيمـانـ ٣٨/٣؛ الـدـيـلـمـيـ، الـمـسـنـدـ ٤٠٤/٢، وـانـظـرـ: التـرـمـذـيـ، الـإـيمـانـ ٨؛ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبلـ، الـمـسـنـدـ ٥/٢٣١، ٢٣٧.

لَكْ بِرُوكِبِ الطَّائِرَةِ، وَنَبْلُغُ مَعًا مَحْلَ إِقْامَتِنَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَقُولُهُ لَكَ فَسَتُضطَرُ إِلَى مَوَاصِلَةِ السَّيِّرِ شَهْرَيْنِ كَامْلِيْنِ فِي هَذِهِ الْمَفَازَةِ مُشَيًّا عَلَى الْأَقْدَامِ، وَالْجَوْعُ يَفْتَكُ بَكَ، وَالْغَرْبَةُ تَخْيِّمُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ وَحْيَدٌ شَارِدٌ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ الطَّوِيلَةِ".

تُرِى لَوْ عَانِدَ هَذَا الشَّخْصُ، فَصَرْفُ حَتَّى تَلِكَ الْلَّيْرَةَ الْبَاقِيَّةَ فِي سَبِيلِ شَهْوَةِ عَابِرَةِ، وَقَضَاءِ لَذَّةِ زَائِلَةِ، بَدْلًا مِنْ اقْتِنَاءِ تَذْكِرَةِ سَفَرٍ هِيَ بِمَثَابَةِ مَفْتَاحِ كَنزٍ لَهُ. أَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ شَقِيقٌ خَاسِرٌ، وَأَبْلَهٌ بَلِيدٌ حَتَّى؟ أَلَا يُدْرِكُ هَذَا أَغْبَى إِنْسَانٍ؟

فِيَا مِنْ لَا يُؤْدِي الصَّلَاةُ! وَيَا نَفْسِي الْمُتَضَايِقَةِ مِنْهَا! إِنْ ذَلِكَ الْحَاكِمُ هُوَ رَبُّنَا وَخَالِقُنَا جَلَّ وَعَلَا. أَمَا ذَلِكَمَا الْخَادِمَانِ الْمَسَافِرَانِ، فَأَحَدُهُمَا هُوَ الْمُتَدِينُ الَّذِي يَقِيمُ الصَّلَاةَ بِشُوقٍ وَيُؤْدِيهَا حَقَّ الْأَدَاءِ، وَالْآخَرُ هُوَ الْغَافِلُ التَّارِكُ لِلصَّلَاةِ. وَأَمَا تَلِكَ الْلَّيْرَاتِ الْذَّهَبِيَّةِ "الْأَرْبَعَةُ وَالْعَشْرُونَ" فَهِيَ الْأَرْبَعَةُ وَالْعَشْرُونَ سَاعَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعُمَرِ. وَأَمَا ذَلِكَ الْبَسْتَانُ الْخَاصُّ فَهُوَ الْجَنَّةُ. وَأَمَا تَلِكَ الْمَحْسَنَةُ فَهُوَ الْقَبْرُ.

وَأَمَا تَلِكَ السِّيَاحَةُ وَالسَّفَرُ الطَّوِيلُ فَهِيَ رَحْلَةُ الْبَشَرِ السَّائِرَةُ نَحْوَ الْقَبْرِ وَالْمَاضِيَّةِ إِلَى الْحَشْرِ وَالْمَنْتَلَقَةِ إِلَى دَارِ الْخَلُودِ. فَالسَّالِكُونُ لِهَذَا الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ يَقْطَعُونَهُ عَلَى درَجَاتٍ مُتَفَوِّتَةٍ، كُلَّ حَسْبِ عَمَلِهِ وَمَدْيِ تَقوَاهُ. فَقَسْمٌ مِنَ الْمُتَقِينَ يَقْطَعُونَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسَافَةً أَلْفَ سَنَةٍ كَأَنَّهُمْ بِالْبَرْقِ. وَقَسْمٌ مِنْهُمْ يَقْطَعُونَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسَافَةً خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَأَنَّهُمْ بِالْخَيْالِ. وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ إِلَى هَذِهِ الْحَقْيَقَةِ فِي آيَيْنِ كَرِيمَيْنِ. أَمَا تَلِكَ التَّذْكِرَةُ فَهُوَ الْصَّلَاةُ الَّتِي لَا تَسْتَغْرِقُ خَمْسُ صَلَوَاتٍ مَعَ وَضُوئِهَا أَكْثَرُ مِنْ سَاعَةٍ!

فِيَا خَسَارَةَ مَنْ يَصْرُفُ ثَلَاثًا وَعَشْرِينَ مِنْ سَاعَاتِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ وَلَا يَصْرُفُ سَاعَةً وَاحِدَةً عَلَى تَلِكَ الْحَيَاةِ الْأَبْدِيَّةِ الْمَدِيَّةِ! وَيَا لَهُ مِنْ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مُبِينٍ! وَيَا لَهُ مِنْ أَحْمَقَ أَبْلَهَ!

لَئِنْ كَانَ دَفْعُ نَصْفِ مَا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ ثُمَّنَا لِقَمَارِ الْيَانِصِيبِ -الَّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ شَخْصٍ- يُعَدُّ أَمْرًا مَعْقُولاً، مَعَ أَنْ احْتِمَالَ الْفُوزِ وَاحِدَةِ مِنْ أَلْفٍ، فَكِيفَ بِالَّذِي يَحْجُمُ عَنْ بَذْلِ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَعَةِ وَعَشْرِينَ مِمَّا يَمْلِكُهُ فِي سَبِيلِ رِيحِ مَضَمُونٍ، وَلِأَجْلِ نَيْلِ خَزِينَةِ أَبْدِيَّةِ، بِاحْتِمَالِ تَسْعَ وَتَسْعِينَ مِنْ مَائَةٍ.. أَلَا يُعَدُّ هَذَا الْعَمَلُ خَلَافًا لِلْعُقْلِ وَمَجَانِيَّةَ الْحَكْمَةِ؟ أَلَا يَدْرِكُ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ يَعْدُ نَفْسَهُ عَاقِلًا؟

إن الصلاة بذاتها راحة كبرى للروح والقلب والعقل معاً. فضلاً عن أنها ليست عملاً مرهقاً للجسم. وفوق ذلك فإن سائر أعمال المصلحي الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبادة لله، وذلك بالنية الصالحة، فيستطيع إذن أن يحول المصلحي جميع رأس مال عمره إلى الآخرة، فيكسبُ عمراً خالداً بعمره الفاني.